



قصة قصر الهملايا

"إن لقاء باباجي بتلميذه لاهيري مهاسيا للمرة الأولى قصة تخلب الأبواب وتأخذ بمجامع القلوب. وهي إحدى القصص القليلة التي تعطينا لمحة مفصلة عن المعلم خالد باباجي." تلك العبارة كانت مقدمة لحكاية عجيبة رواها لي سوامي كيبالانندا، وقد سُحرت لدى سماعها للمرة الأولى. وكثيراً ما كنت أطلب بتودد من معلمي اللطيف في السنسكريتية كي يعيد تلاوة القصة التي سمعتها من معلمي سري يوكتسوار فيما بعد بنفس الألفاظ تقريباً. فتلميذا لاهيري مهاسيا سمعا هذه القصة المدهشة مباشرة من شفّتي معلمهما الذي قال:

"تم لقائي الأول مع باباجي في الثالثة والثلاثين من عمري. ففي خريف عام ١٨٦١ كنت أعمل في دانابور كمحاسب حكومي في قسم الهندسة الحربية. وذات صباح استدعاني مدير المكتب وقال: 'لاهيرى، لقد وردت برقية على التو من المقر الرئيسي تستدعي نقلك إلى رانيخيت حيث يتم الآن إنشاء مركز للجيش،

'وشرعت مع مساعد واحد في رحلة طولها ٥٠٠ ميل. وبعد سفر في عربة تجرها الخيول وصلنا بعد ثلاثين يوماً موقع رانيخيت الهملاني

"لم تكن أعمالي المكتبية مجهدة، فتمكنت من صرف ساعات طويلة في التجول وسط التلال البديعة. وبلغني خبر مفاده أن قديسين عظماء قد باركوا المكان بوجودهم فأحسست برغبة قوية في لقائهم. وخلال إحدى الجولات من بعد ظهر أحد الأيام دُهِشت لسماع صوت بعيد يناديني، فتابعته لتسلي النشيط لجبل دورنغيري. وأحسست ببعض القلق حينما خطر ببالي بأنني قد لا أستطيع العودة قبل أن يحل الظلام فوق الغابة.

"أخيراً بلغت بقعة خالية من الأشجار تضم جوانبها بعض الكهوف، وعلى أحد جوانبها الصخرية وقف شاب يبتسم ويمد يده مرحباً بي. وقد لاحظت باندهاش أنه باستثناء شعره النحاسي اللون يشبهني إلى حد كبير.

"وخاطبني القديس بحنان بالهندية قائلاً: 'ها قد أتيت يا لاهيري! استرح في هذا الكهف فأنا الذي استدعاك إلى هنا.'

"ودخلت غاراً نظيفاً به عدة بطانيات صوفية وبضع أوعية للماء. وأشار اليوغي إلى بطانية مطوية في أحد الأركان وقال: 'لاهييري، هل تذكر ذلك المقعد الصوفي؟'

"ولما كنت ذاهلاً بفعل مغامرتي الغربية أجبته: 'لا يا سيدي لا أذكره، ويجب أن أغادر المكان الآن قبل حلول الظلام لأن هناك أعمالاً مكتبية ينبغي إنجازها في الصباح.'

"فأجابني القديس الغامض بالإنكليزية ما معناه: لقد جيء بالمكتب من أجلك ولم يؤتى بك من أجل المكتب.

"وذهلت لأن أجد ناسك الغابة هذا لا يتكلم الإنكليزية وحسب بل يفسر أيضاً أقوال السيد المسيح. وقد أضاف قائلاً: 'أرى أن برقيتي قد سرى مفعولها.'

"وبدت ملاحظة اليوغي غير مفهومة لي، فطلبت منه الإيضاح فأجاب: 'أقصد بذلك تلك البرقية التي أتت بك إلى هذه المناطق النائية. فأنا الذي اقترح بصمت إلى عقل رئيسك كي ينقلك إلى رانخييت. فعندما يحس الإنسان بوحدته مع سائر البشرية تصبح كل العقول محطات إرسال يمكنه أن يستعملها بالإرادة.'

ثم أضاف: 'لاهييري، بالتأكيد هذه المغارة ليست غريبة عليك ولا بد أنك تعرفها.'

"وإذ بقيت صامتاً بفعل الحيرة والذهول، دنا مني القديس وقرع جبته بلطف. وعلى أثر لمستته اكتسح دماغي تيار عجيب فأطلق بذور التذكارات الحلوة لحياتي السابقة، فقلت وقد خنقنتي دموع الفرح: 'نعم أتذكر! فأنت هو معلمي الحبيب باباجي الذي كان وما زال حارسي الأمين وكنزي الثمين. إن صور الماضي تبدو لعقلي بكل جلاء ووضوح. فهنا في هذه المغارة بالذات صرفت سنوات عديدة من تجسدي السابق.'

"وإذ غمرني فيض التذكارات التي يصعب وصفها، طوقت قدمي معلمي بذراعي وضممتها إلى صدري والدمع ينهمر من عيني"

"ورن صوت باباجي بنغمة الحب السماوي وهو يقول:

'لأكثر من ثلاثين عاماً وأنا في انتظار عودتك إليّ! لقد انزلت واختفيت في خضم الأمواج الصاخبة للحياة بعد الموت. لامستك العصا السحرية لكرماك فمضيت! ومع أنني تواريت عن أنظارك لكنك لم تختف عن بصري أبداً! لقد تعقبك فوق البحر الكوكبي المضيء حيث يسبح الملائكة الممجدون. ففي الظلام والعاصفة والثوران والاضطراب والضوء تتبعتك وحرستك مثلما تحرس أم الطائر صغيرها. وإذ عشت شهورك التكوينية كجنين في الرحم ثم خرجت إلى

عالم النور وليدأ كانت عيناى ترعاك. وحى عىما كنى ءربع فى وء اللوس وءغر ءسك الصغر فى الرمال أثناء طفولتك كنى قربأ منك ولكنك لم ءببىن حضورى! لقد رعىتك بصبر وأناة شهراً بعد شهر وعامأ بعد عام وأنا فى انءظار ساعاة الرحمن هءه. لقد ءمع الله شملنا وءخم فراقنا بالءلاقى، وها أنى الآن معى. هاهى مغارءك القءىمة الءى أحببءها كءىراً. انظر كىف اءفظء بها نظىفة ومرءبة فى انءظار عوءءك. وءلك هى بءانىة ءءأمل المباركة الءى كنى ءربع عىلها لءملاً بءب ونعىم الله قلبك المءسع. وهءا هو الطاس الءى غالبأ ما كنى ءرءشف منه الشراب اللذىء الءى كنى أعدّه لك! انظر كىف اءفظء بالكوب النحاسى نظىفأ ولامعأ لءشرب منه ءانىة. فىا بىب القلب هل ءءرك الآن كل هءا؟

”وهمهمء بعبارات مءهءءة: ’ماذا يمكننى أن أقول فى سىءى؟ وأىن سمع الإنسان بمءل هءا البء الءالء الءى ىءءى الفناء؟’ ءم ءطلءء بشوق ما بعءه شوق وبفرء لا فىصف إلى كنى الأبءى: معلمى الروحى ومرشءى الأعظم فى الءىاة والموء.

”واسءءرء باباى قانلا: ’لاهىرى، إنك فى ءاآة إلى ءطهىر. اشرب الزىء الءى فى الإءاء وارقد على ضفة النهىر. وابءسمء وقد أءركء على الفور أن ءكمة باباى العملىة ءاضرة على الءوام.

”أطءء ءعلىمات المعلم. ومع أن لىل الهملأا الشءىء البروءة كان وشىك الءلول، لكننى أءسسء بأشعاع ءافى ومرىء ىنبض فى ءلأىا ءسمى، ءءعءبء وءساءلء عما إذا كان الزىء المءهول قم ءم شءنه بءرارة كونىة!

”ولولء الرىاح العاءىة ءولى فى ظلمة اللىل وراءء ءصرء مءءءىة، وبىن الءىن والآءر ارءظمء الأمواج الصغىرة الباردة لنهر الغوعش بءسمى الممءء على الشاطئ الصءرى. وزمءرء النمور على مقربة منى لكن قلبى ظل مءءرراً من الءوف. فالقوة الإءعاعىة الءى ءولءء ءءىئأ ءاأل كىانى ءملىء معها ءأكىءأ قاطعأ بءمأىة لا ىمكن اقءءامها إءلاقأ. ومرء الساعات مسرعة وءارء فى ءاظرى ءءءكاراء الغابرة لءىاة آءرى وصابءء ءاؤها فى هءه ءءربة المشرقة للقانى مع معلمى الأءءس.

”وانقءطء ءأملاءى المنفرءة بوقع أقءام ءءنو منى. ووسط الظلام امءء ىء إنسان برفق وساعءءنى فى الوقوف على قءمى، ءم ناولءنى بعض الملابس ءاآة.

”وقال رفىقى: ’ءعال فى آءى، فالعلم فى انءظارك.

”اقءاءنى الرفىق عبر الغابة، ولما بلغنا منعطفأ فى الطرىق لمع بءءة عن بءء نور وهاء ءىر مءقءع، أضاء عءمة اللىل، فقلىء مءسانلا: ’أىءوز أن ىكون ءلك شروق الشمس؟ بكل ءأكىء لم ىنبض اللىل كله بعد؟!

”واضحك ءلىلى ضءكة لطىفة وهو فىقول: ’نحن الآن فى منءصف اللىل، والضوء الءى ءراه هءاك هو برىق لقصر ءهبى ءسءه هءه اللىلة باباى الءى لا نظىر له. فىفى الماضى البعء أءربء ءاء مرة عن رءبة فى الاسءمءاع بمءاسن قصر، والآن ىءقق معلمنا أمنىءك وىءررك

من قيود الكارما. وهذا القصر الفخم سيشهد الليلة تكريسك في الكريا يوغا، وسوف ينشد إخوانك الحاضرون أناشيد الترحيب بك والاحتفال بانقضاء مدة غربتك. انظر جيداً!

"لقد ظهر أمامنا قصر منيف وفسيح من الذهب المتألق، يكاد بريقه اللامع يخطف البصر، وقد زُين بجواهر لا حصر لها. وهذا القصر أقيم وسط بساتين وحدائق غناء وقد انعكست صورته في البرك الهادئة فبدأ غاية في الروعة والإبداع الذي لا نظير له. وكانت الممرات المقنطرة مرصعة بدقة فائقة بأحجار كريمة كبيرة الحجم من ألماس وياقوت أزرق وزمرد. وقد وقف مريدون بوجوه ملائكية عند بوابات تتألق بحمرة العقيق.

"سرت خلف رفيقي إلى بهو استقبال فسيح، وكانت روائح البخور والورد تعطر الهواء والمصابيح الخافتة تلقي أضواء متعددة الألوان، بينما كانت مجموعات صغيرة من المريدين، بعضهم ببشرة بيضاء وبعضهم ببشرة سمراء ترتل بهدوء أو تجلس في وضع التأمل مستغرقة في سلام باطني، وقد غمر الجو فرح شامل.

"وعندما أطلقت عبارات الدهشة ابتسم دليلي بمودة وقال: 'متع عينيك وتلذذ بالروعة الفنية الفائقة لهذا القصر الذي جيء به إلى هذا الوجود احتفاءً بك.'

"وقلت: 'يا أخي، إن جمال هذا البناء يفوق حد الخيال البشري. بالله أخبرني عن سره.'

"وشعّت عينا رفيقي السوداوان ببريق الحكمة وأجابني قائلاً: 'بكل سرور. وبالواقع لا يوجد غموض حول تجسيد هذا القصر، لأن الكون بأسره هو فكر متجسد للخالق. وهذه الكرة الأرضية الترابية الثقيلة السابحة في الفضاء هي أيضا حلم من أحلام الله الذي صنع كل شيء من جوهر عقله مثلما ينسج الإنسان في وعيه الحالم كوناً مع مخلوقاته ويبث فيه الحيوية والنشاط.

" 'لقد خلق الله الأرض أولاً كفكرة ثم استحتمها فأتى النشاط الذري إلى الوجود. ثم نسق ذرات هذه الكرة الصلبة التي تتماسك جزيئاتها بقوة إرادته. وحينما يسحب الله إرادته منها ستتحول جميع الذرات التي تتكون منها الأرض إلى نشاط، والنشاط سيتحول إلى وعي فتتلاشى عندئذ فكرة الأرض من عالم المادة.

" 'إن مادة الحلم تتماسك بفعل العقل الباطن للنائم. وعند الاستيقاظ ينسحب ذلك الفكر القابض فينحل الحلم مع عناصره. الشخص يغمض عينيه ويخلق عالماً من الأحلام يهدمه دون مجهود فور يقظته. وهكذا فهو يقتفي النموذج الإلهي الأصلي. وبالمثل فهو عندما يستيقظ في الوعي الكوني يهدم دون عناء أو هام الكون الحلمي.

" 'وبتوحيد ذاته مع الإرادة الكلية القادرة على عمل كل شيء يستطيع باباجي استحضار ذرات العناصر ويطلب منها أن تتجمع وتتخذ الشكل الذي يريده. فهذا القصر الذهبي الذي تم تجسيده فوراً هو حقيقي بقدر ما هي الأرض حقيقية. لقد أبدع باباجي هذا الصرح الشامخ ويحتفظ بذراته متماسكة بقوة إرادته، بنفس الكيفية التي خلق الله بواسطتها هذه الأرض ويبقيها

متماسكة بإرادته، ثم أردف قائلاً: 'وحينما يؤدي هذا البناء الغرض الذي من أجله وُجد سيقوم باباجي بتفكيك عناصره!'

'وإذ بقيت صامتاً بفعل الدهشة، قال دليلي مشيراً إلى القصر: 'إن هذا القصر المتألق والمزدان بالجواهر والدرر لم يتم تشييده بمجهود بشري، وذهبه وجواهره لم يتم استخراجها بعناء من المناجم، ومع ذلك فهو قائم برسوخ وثبات كتحدٍ جبار للإنسان. فكل من يدرك ذاته أنه صورة الله مثلما يدرك باباجي يمكنه بلوغ أي هدف بفضل القوى اللامتناهية الكامنة في داخله. إن الحجر العادي يحتوي على قوى ذرية هائلة وبالمثل فإن أقل البشر شأنًا يمتلك طاقات إلهية هائلة.'

'والتقط الحكيم من مائدة قريبة مزهرية بديعة ذات قبضة مرصعة بالألماس المتوهج وقال: 'لقد أبدع سيدنا العظيم باباجي هذا القصر بتكثيف أعداد لا تحصى من الأشعة الكونية الطليقة. المس بيدك هذه المزهرية وماساتها وستجد أنها تجتاز بنجاح كل الاختبارات الحسية.' 'تفحصت المزهرية وكانت جواهرها تصلح لأن تكون من ضمن كنوز الملوك. ثم مررت بيدي فوق جدران البهو الناعمة الموشاة بالذهب المشع، وقد غمر الرضا العميق عقلي وأحاسيسي. وأحسست أن رغبة متوارية في طيات وعيي الباطن من حيوات سابقة قد تحققت وانطفأت في نفس الوقت.'

'بعد ذلك قادني رفيقي الجليل داخل أقواس وممرات بديعة الزخارف إلى عدد من الحجرات المفروشة بكيفية فاخرة تليق بقصر امبراطوري. ثم دخلنا بهواً فسيحاً في وسطه عرش ذهبي مغطى بجواهر نادرة تشع مزيجاً من ألوان متألقة. وهناك في وضع اللوتس كان يتربع العالي الشأن، ذو المقام الأسمى باباجي، فجتوت عند قدميه فوق الأرض اللامعة. وكانت عيناه تلمعان كإحدى ياقوتاته. وقد خاطبني قائلاً:

'لاهيري، هل ما زلت تتلذذ برغباتك الحاملة لقصر ذهبي؟ استيقظ! فكل أنواع عطشك الأرضي هي الآن على وشك الارتواء الأبدي!'

ثم تمت ببعض كلمات غامضة من البركة وقال: 'انهض يا بني وتقبل تكريسك لملكوت الله عن طريق الكريا يوغا.'

'ومد باباجي يده فاندلع منها لهب نار قربانية محاطة بالثمار والورود، وقد حصلت على الطريقة اليوغية المحررة أمام هذا المذبح المتقدم.'

'امت الطقوس في ساعات الفجر الباكورة وقد كنت في نشوة روحية عارمة فلم أشعر بحاجة إلى النوم. وتجولت حول القصر الزاخر بالكنوز النفيسة والتحف الفنية الرائعة. وعندما تمشيت في الحدائق البهيجة لاحظت بالقرب منها نفس الكهوف والصخور الجبلية الجرداء ذات الحواف الناتئة التي لم تكن مجاورة لمبنى عظيم أو أحواض الزهور الناضرة.'

" دخلت ثانية القصر المتوهج بشكل مدهش في ضوء شمس الهملايا الباردة وتوجهت إلى معلمي الذي كان لا يزال متربعا على عرشه ومحاطاً بالعديد من المریدین الهادين، فخطبني قائلا:

" لاهيري، إنك جائع، ثم أضاف: 'أغمض عينيك.' "

"أغمضت عيني ثم فتحتهما فوجدت وللعجب أن القصر الفتان بحدائقه الغناء قد اختفى، في حين كان جسمي وجسم باباجي وأجسام التلاميذ تجلس فوق الأرض الجرداء في نفس البقعة التي كان القصر المتلاشي قائماً فوقها، ليس بعيداً عن مداخل الكهوف الصخرية المغمورة بنور الشمس. وتذكرت ما قاله دليلي من أن عناصر القصر ستتفكك وستعود ذراته المحبوسة إلى الجوهر العقلي الذي صيغ منه. ومع أنني دهشت لهذا التغير المفاجئ لكنني تطلعت بثقة إلى معلمي دون أن أعرف ما سأوقعه في ذلك اليوم المليء بالمفاجآت العجيبة.

"وقال باباجي موضحاً: 'لقد تحقق الغرض الذي من أجله تم تجسيد القصر.' ثم رفع من الأرض إناءً من الفخار وقال: 'ضع يدك في الإناء وستجد ما تشتهييه من طعام.'

"وما أن لمست الوعاء الفارغ الواسع حتى ظهرت أرغفة خبز مقلية بالزبدة مع طعام مطيب ببهار الكاري وقطع حلوى، فأكلت وقد لاحظت أن الوعاء ظل دائماً مملوئاً. بعد ذلك تطلعت حولي بحثاً عن الماء فأشار معلمي إلى نفس الوعاء الذي أمامي، فمددت يدي فإذا بالطعام الموجود بداخله قد اختفى بكيفية عجيبة وقد حل الماء محله. فقال باباجي: 'قلائل من البشر يدركون أن مملكة السماء كفيلاً بسد الحاجيات الدنيوية لأنها تشمل فيما تشمل المملكة الأرضية، لكن هذه الأخيرة لا تشمل جوهر الحقيقة بسبب طبيعتها الوهمية.'

"وابتسمت لذكريات القصر المختفي وقلت لمعلمي: 'يا سيدي الحبيب لقد برهنت لي في الليلة الماضية عن الصلة الجمالية الوثيقة بين السماء والأرض! ومن المؤكد أن أي يوغني عادي لم يحصل على تكريس في أسرار الروح الأسمى في جو أكثر روعة وإجلالاً!'. ثم ألقيت نظرة هادئة على المنظر الحالي وقد بدا التباين في غاية الوضوح. فالأرض الجرداء والسقف السماوي والكهوف التي توفر مأوى بدائياً، كلها بدت خلفية طبيعية للقديسين الملائكيين من حولي.

"جلست بعد ظهر ذلك اليوم فوق بطانيتي التي باركتها روابط مقدسة لمدركات من حياة سابقة، فاقترب مني معلمي الأقدس ومرر يده فوق جبيني فدخلت في حالة النشوة الربانية العظمى (النيربيكالبا صمادهي) وبقيت سابحاً في غببتها دون انقطاع لسبعة أيام بلياليها. وقد اخترقت طبقات معرفة الذات المترابطة ونفذت إلى جوهر الحقيقة الحية حيث تتلاشى كافة الحدود الوهمية، ورسختُ روحي رسوخاً كاملاً على مذبح الروح الكوني الخالد. وفي اليوم الثامن وقعت على قدمي معلمي وتوسلت له أن يبقيني بقربه على الدوام في هذه البرية المقدسة.

"وَضَمْتِي بِأَبَاجِي إِلَى صَدْرِهِ قَانِلاً: 'يَا بَنِي، فِي هَذَا التَّجَسُّدِ يَجِبُ أَنْ تَلْعَبَ دَوْرَكَ بِالقَرْبِ مِنَ الجَمَاهِيرِ وَأَمَامَ أَعْيُنِهِمْ. فَأَنْتِ قَدْ بَوْرَكْتَ بِالتَّأَمُّلِ المُنْفَرِدِ قَبْلَ وَلاَدَتِكَ بِحَيَوَاتٍ عَدِيدَةٍ. وَمِنْ وَاجِبِكَ الآنَ الاِخْتِلاطُ بِالنَّاسِ. وَهناك سببٌ فَعْلِي لِعَدَمِ لِقَائِكَ بِي هَذِهِ المَرَّةَ قَبْلَ أَنْ تَصْبِحَ رَجُلًا مَتَزَوِّجًا مَعَ التَّزَامَاتِ عَائِلِيَّةٍ وَعَمَلِيَّةٍ مَتَوَاضِعَةٍ. فَدَعِ جَانِبًا فِكْرَةَ الاِلتِحَاقِ بِجَمَاعَتِنَا المَحْجُوبَةِ فِي الهَمَلَايَا لِأَنَّ حَيَاتَكَ مَقْرَرٌ لَهَا أَنْ تَكُونَ بَيْنَ سَكَانِ المَدِينِ كَرَبِّ أُسْرَةٍ وَيُوعِي مِثَالِي،

"وَاسْتَطَرِدْ مَعْلَمِي قَانِلاً: 'إِنْ تَوَسَّلْتَ العَدِيدَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ الحَيَارَى فِي العَالَمِ لَمْ تَقَعِ عَلَى مَسَامِعِ العِظْمَاءِ دُونَ جَدْوَى، وَقَدْ وَقَعَ الاِخْتِيَارُ عَلَيْكَ لِكَيْ تَأْتِيَ بِالعِزَاءِ الرُّوحِيِّ عَنِ طَرِيقِ الكَرِيَا يُوغَا لِمَجْمُوعَاتٍ كَبِيرَةٍ مِنَ البَاحِثِينَ بِجِدِّ وإِخْلَاصٍ عَنِ الحَقِيقَةِ. فَمَلَايِينُ البَشَرِ الذِينَ يَرِزْحُونَ تَحْتَ أَعْبَاءٍ ثَقِيلَةٍ مِنَ ارْتِبَاطَاتٍ عَائِلِيَّةٍ وَالتَّزَامَاتِ دُنْيَوِيَّةٍ سَيَحْصِلُونَ عَلَى تَشْجِيعِ جَدِيدٍ مِنْكَ كَرَبِّ عَائِلَةٍ وَوَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَعَلَيْكَ أَنْ تَوَجِّهَهُمْ لِكَيْ يَدْرِكُوا أَنَّ بُلُوغَ أُسْمَى دَرَجَاتِ اليُوغَا لَيْسَ مَسْتَحِيلًا عَلَى رَبِّ الأُسْرَةِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ وَجُودِهِ فِي العَالَمِ، فَاليُوغِي الَّذِي يَقُومُ بِوَأْجِبَاتِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ وَيُنْجِزُ مَهَامَهُ بِأَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ دُونَ دَافِعِ أَنَانِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ المَوْثُوقَ لِلإِسْتِنَارَةِ الرُّوحِيَّةِ.

" مَا مِنْ ضَرُورَةٍ تَقْتَضِي تَرْكَكَ لِلعَالَمِ، لِأَنَّكَ فِي أَعْمَاقِكَ قَطَعْتَ كُلَّ رَابِطَةٍ كَارْمِيَّةٍ تَرْتَبِكُ بِهِ. وَمَعَ أَنَّكَ لَسْتَ مِنَ العَالَمِ، لَكِنْ يَتَوَجَّبُ عَلَيْكَ البَقَاءُ فِيهِ. وَمَا زَالَ أَمَامَكَ سَنِينَ عَدِيدَةٍ لَتَنْجِزَ فِيهَا خَيْرَ إِنْجَازٍ وَاجِبَاتِكَ العَائِلِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ وَالمَدِينِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ. وَبِوُجُودِكَ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا سَتَهَبُ نِسَانِمَ حَلْوَةٍ جَدِيدَةٍ وَمُنْعِشَةٍ مِنَ الأَمَلِ الرُّوحِيِّ عَلَى قُلُوبِهِمُ القَاحِلَةِ. وَسَوْفَ يَعْرِفُونَ مِنْ حَيَاتِكَ المَتَزَنَةَ أَنَّ التَّحَرُّرَ الفَعْلِيَّ يَتَوَقَّفُ عَلَى التَّرْكِ البَاطِنِيِّ وَليْسَ الخَارِجِيِّ.

"وَإِثْنَاءَ إِصْغَائِي لِمَعْلَمِي فِي خَلُواتِ الهَمَلَايَا العَالِيَةِ شَعَرْتُ أَنَّي بَعِيدٌ كُلَّ البَعْدِ عَنِ أُسْرَتِي وَمَكْتَبِي وَالعَالَمِ، لَكِنِّي سَمِعْتُ صَوْتَ الحَقِّ يَرِنُ فِي كَلِمَاتِهِ فَرَضِيَّتٍ عَنِ طَيْبِ خَاطِرِ البَلا رْتِحَالِ عَنِ هَذَا المَرْفَأِ المَبَارَكِ لِلسَّلَامِ. وَقَدْ أَعْطَانِي بِأَبَاجِي التَّعْلِيمَاتِ القَدِيمَةَ الصَّارِمَةَ الَّتِي يَنْبَغِي مِرَاعَاتُهَا بِدَقَّةٍ عِنْدَ نَقْلِ طَرِيقَةِ اليُوغَا مِنَ المَعْلَمِ إِلَى التَّلْمِيزِ، وَأَوْصَانِي بِالقَوْلِ:

" 'أَمْنِحْ مَفْتاحَ الكَرِيَا لِكُلِّ التَّلَامِيذِ الجَدِيرِينَ بِإِمْتِلَاقِهِ. فَمَنْ لَدَيْهِ الرِّغْبَةُ الصَّادِقَةُ لِتَضْحِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ العُثُورِ عَلَى اللَّهِ هُوَ وَحْدَهُ كَفُؤٌ لِأَنَّ يَحِلَّ أُسْرَارُ وَغَوَامِضِ الحَيَاةِ بِوِاسِطَةِ عِلْمِ التَّأَمُّلِ.

"تَطَلَّعْتُ إِلَى بِأَبَاجِي وَقَلْتُ مَتَوَسَّلًا: 'يَا سَيِّدِي المَلَأَكِي، يَا مَنْ تَكْرَمْتَ عَلَى البَشَرِ بِإِحْيَاءِ طَرِيقَةِ الكَرِيَا المَفْقُودَةِ! هَلَّا ضَاعَفْتَ تِلْكَ الفَائِدَةَ بِتَخْفِيفِ الشُّرُوطِ الصَّارِمَةِ لِلتَّلْمِذَةِ؟ بِاللَّهِ عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَحَ لِي بِنَقْلِ الكَرِيَا لِكُلِّ البَاحِثِينَ المَخْلِصِينَ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ كُنُوزُهَا فِي البَدَايَةِ مِنْ تَكْرِيسِ أَنْفُسِهِمْ بِصُورَةٍ قَاطِعَةٍ لِلتَّرْكِ الدَّاخِلِيِّ التَّامِ. فَالمَعْذُوبُونَ فِي الأَرْضِ – مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ – الذِينَ يَطَارِدُهُمُ الأَلَمُ الثَّلَاثِي هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى تَشْجِيعٍ خَاصٍّ لِأَنَّهُمْ قَدْ لَا يَتَوَجَّهُونَ نَحْوَ الحَرِيَّةِ إِنْ حَرَمْنَا هُمْ مِنْ تَكْرِيسِ الكَرِيَا.

”فأجاب المعلم الرقيق القلب: ’فليكن. لقد أعرب الله عن إرادته من خلالك. امنح الكريا لكل من يطلب المساعدة منك بتواضع.’

”وبعد برهة من الصمت أضاف باباجي: ’ردد لكل تلميذ من تلاميذك هذا الوعد المهيب من البهاغافاد غيتا: [إن ممارسة ولو قسط ضئيل من هذا التدريب الروحي أو العمل الصالح ستخلص المرید من آلام رهيبية موروثة في الدورات المتعاقبة للولادة والموت.]

”وعندما ركعت في اليوم التالي عند قدمي معلمي للحصول على بركة الوداع، أحس باباجي بترددي العميق في مفارقتة، فلمس كتفي برفق ومودة قائلاً:

” يا ابني المحبوب لا يوجد فراق بيننا أبداً. فحيثما تكون وحينما تنادينني تجدني عندك على الفور، في التو واللحظة!‘

”وإذ واساني وعده العجيب واغتيتت بكنوز الحكمة الإلهية التي عثرت عليها حديثاً نزلت من الجبل ومضيت إلى حال سبيلي. ولما وصلت المكتب رحب زملائي بي وظنوا على مدى عشرة أيام أنني ضللت طريقي وسط أحرش الهملايا. وفور وصولي وردت رسالة من المكتب الرئيسي وكان مضمونها: ’يجب أن يعود لاهيري إلى مكتب مدينة دانابور (القريبة من بنارس) لأنه تم نقله عن طريق الخطأ إلى رانيخيت، إذ كان من المفترض إرسال شخص آخر للقيام بأعمال رانيخيت!‘

”تبسمت ورحت أتأمل التيارات الخفية المتقاطعة للأحداث التي أتت بي إلى هذا المكان في أقصى بقاع الهند.

”وقبل عودتي إلى دانابور أمضيت بضعة أيام مع أسرة بنغالية في مراد آباد حيث حضر ستة أصدقاء للسلام عليّ والترحيب بي. وإذ حولت الحديث إلى الأمور الروحية قال مضيبي بكآبة: ’إن الهند تفتقر إلى القديسين في هذه الأيام!‘ فاعترضت بشدة قائلاً: ’هذا غير صحيح يا سيد. فالسادة العظام ما زالوا في هذه البلاد!‘

”وتملكني إحساس عارم من الحماس المتقد وشعرت برغبة ملحة لإطلاعهم على اختباراتي الخارقة في الهملايا. وبدا الحاضرون مرتابين بتأدب، وقال أحدهم محاولاً تهدئتي: ’لا هيري، لا بد أن عقلك كان مجهداً في تلك الأجواء الجبلية القليلة الكثافة، وما أخبرتنا به هو من نسج الخيال!‘

”واحترقت غيرة للحق وقلت دون تأمل: ’لو طلبت من معلمي الحضور لظهر على الفور هنا في هذا البيت بالذات!‘

”ولمع بريق الاهتمام في أعين جميع الحاضرين، وكان من الطبيعي أن يتشوقوا لمعاينة ظاهرة غير عادية كهذه. وبعض التردد طلبت غرفة هادئة وبطانيتين جديدتين من الصوف وقلت: ’المعلم سيتجسد من الأثير. انتظروا بصمت خارج الباب وسأدعوكم بعد قليل.’

"غصت في تأمل عميق ورحت استحضر معلمي بكل تواضع وخشوع وقد غمر نور خفيف ولطيف الغرفة، وما لبث شكل باباجي اللامع أن ظهر.

"رمقتي المعلم بنظرة صارمة وقال: 'لاهيري، أنتستقدمي لمثل هذه التوافه؟! معرفة الحقيقة هي من نصيب الباحثين الجادين وليس الفضوليين الخاملين. بالطبع من السهل أن يؤمن الشخص عندما يرى البراهين بعينه فتنتفي الضرورة للبحث عن الروحيات. ولكن الحقيقة التي تفوق إدراك الحواس لا يمكن أن يكتشفها إلا الذين يتغلبون على شكوكهم المادية الاعتيادية.' ثم أضاف برصانة: 'دعني أذهب!'

"وقعت على قدميه متوسلاً وقلت: 'يا سيدي الأقدس، لقد أدركتُ خطأي الكبير وألتمس منك الصفح والمغفرة. وأنا لم أجروُ على استدعائك إلا لكي أشعل نور الإيمان في تلك العقول المصابة بالعمى الروحي. وبما أنك تكلمت بالظهور تلبية لندائي، فأرجوك أن لا تذهب قبل أن تمنح بركتك لأصدقائي. وبالرغم من عدم إيمانهم، لكنهم مع ذلك كانوا على استعداد لاختبار صدق تأكيدات الغريبة.'

"فقال باباجي بلطف وقد لانت تقاطيع وجهه: 'حسناً، سأبقى لبعض الوقت إذا لا أرغب في أن تفقد مصداقيتك أمام أصدقائك! ولكن من الآن فصاعداً سأتي إليك يا بني فقط عندما تحتاجني وليس دوماً كلما تناديني."

"أذهل أصدقائي لدرجة كبيرة عندما فتحت باب الغرفة وقد خيم عليهم الصمت. وراحوا يحملقون في الشكل المتألق المتربع فوق البطانية الصوفية وكأنهم لا يصدقون حواسهم. أخيراً قهقهه أحدهم قائلاً: 'هذا تنويم مغناطيسي جماعي، إذ من غير الممكن أن يكون أي شخص قد دخل إلى هذه الغرفة بدون علمنا.'

"وتقدم باباجي باسماء وطلب من كل فرد من الحاضرين أن يلمس جسمه الدافئ المحسوس. وما أن تبددت الشكوك حتى انبطح أصدقائي على أرض الغرفة بندم كبير!"

"وقال المعلم: 'فلتصنع الحلوى'

"وقد أدركت أن باباجي قام بهذا الطلب لتعزيز يقين الجماعة بكيانه المادي. وبينما كان الثريد يغلي كان المعلم يسامر الحضور بلطف. ولقد تحول المرتابون إلى جماعة من المؤمنين، ويا له من تحول عظيم! وبعد أن تناولنا الحلوى بآرك باباجي كل واحد بدوره، ثم حدثت ومضة مفاجئة فأبصرنا التحلل الكيماوي الفوري للعناصر الالكترونية لجسم باباجي وقد انتشرت كبخار من الضوء الساطع. فإرادة المعلم المتناغمة مع الله أرخت قبضتها عن ذرات الأثير المتماسكة معاً والمكونة لجسمه، فانطلقت ترليون ذرات الحياة المشعة وعادت إلى مستودع الأثير اللانهائي.

"وصاح ميتراً أحد أفراد الجماعة بوقار وقد شع وجهه بالغبطة ليقظته الروحية الحديثة: 'لقد رأيت بعيني قاهر الموت. فالسيد الأقدس لعب بالزمان والفضاء كما يلعب الطفل بفقاقيع الصابون. لقد رأيت شخصاً يمسك بمفاتيح السماء والأرض!'

وختم لاهيري مهاسيا حديثه قائلاً:

"عدت للفور إلى دانابور وقد ترسخ كياني في الروح الإلهي، واستأنفت مجدداً واجباتي

المتعددة والتزاماتي العائلية كرب أسرة." "

وقص لاهيري مهاسيا أيضاً لسوامي كيبالانندا وسري يوكتسوار حكاية لقائه الثاني مع باباجي في ظروف تؤكد مقولة المعلم العظيم له: 'سأحضر عندما تحتاجني'. قال:

"حدث ذلك في إحدى الأعياد الدينية في مدينة الله أباد، حيث ذهبت أثناء استراحة قصيرة من

واجباتي الإدارية. وأثناء تجوالي بين حشد الناسك الذين وفدوا من بقاع نائية لحضور العيد

المقدس لاحظت أحدهم معفراً بالرماد وهو يحمل وعاء تسول. وقد خطر في بالي أن الرجل

كان مرانياً. فهو إذ تبدو عليه العلامات الخارجية للزهد لا يمتلك بالمقابل بركة داخلية موازية.

"وما أن مررت من أمام هذا المتقشف حتى دهشت لأن أرى باباجي راعياً أمام أحد الزاهدين

من ذوي الشعر المتلبد، فأسرعت إلى جواره قائلاً: 'سيدي، ما هي مناسبة وجودك هنا؟'

"فابتسم لي باباجي كطفل صغير مجيباً: 'إنني أغسل قدمي هذا الناسك ومن ثم سأنظف أوعية

طعامه.' "

"وقد أدركت على الفور أنه بقوله هذا كان يوحي لي بأن لا أنتقد إنساناً، بل أبصر سيد الأكوان

ساكناً بالتساوي في سائر هياكل البشر، سواء كان أصحابها من ذوي المقامات الرفيعة أو

المستويات الوضيعة. ثم أضاف المعلم العظيم: 'إنني بخدمة الناسك الحكماء والجهلاء أتعلم

بذلك أسمى الفضائل وأكثرها قبولاً عند الله، ألا وهي فضيلة التواضع!'

المصدر: مذكرات يوجي - السيرة الذاتية لمؤلفه برمهנסا يوغانندا

ترجمة حديثة منقحة: محمود مسعود